



دولة بنی عمار فی طرابلس

پدیدآورده (ها) : الأمين، محمد حسن

میان رشته ای :: المنهاج :: بهار 1375 - شماره 1

از 163 تا 186

آدرس ثابت : <http://www.noormags.ir/view/fa/articlepage/208606>

دانلود شده توسط : رسول جعفریان

تاریخ دانلود : 10/04/1395

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) جهت ارائه مجلات عرضه شده در پایگاه، مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تألیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صفحه **قوانین و مقررات** استفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.



پایگاه مجلات تخصصی نور

www.noormags.ir

دولة بني عمار في طرابلس

السيد حسن الأمين

بنو عمار أسرة تعود أصولها إلى قبيلة كتامة المغربية الإفريقية^(١). وعند قيام الدولة الفاطمية كان شيوخ هذه القبيلة مئّن لهم الصدارة في مؤسساتها الإدارية والعسكرية، نذكر منهم الحسن بن عمار الذي كان من أبرز رجال الخليفة الفاطمي العزيز بالله.

ثم كان بنو عمار قضاة طرابلس، ثم أصبحوا أمراءها فمنهم أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار، المتوفى سنة ٤٦٤ هـ، ثم جلال الملك أبو الحسن علي بن عمار المتوفى سنة ٤٩٢ هـ، ثم فخر الملك عمار بن محمد بن عمار المتوفى حوالي سنة ٥١٤ هـ، وأبو المناقب شمس الملوك أبو الفرج محمد بن عمار المتوفى سنة ٥٠١ هـ.

كان استقلال بني عمار بطرابلس سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م). وكانت إمارتهم تمتد حتى تخوم بيروت من جهة وحتى أرباض أنطاكية من جهة ثانية. وتمتد من نواحي جبلة في سوريا إلى قلعة صافيتا وحصن الأكراد والبقية. وفي لبنان حتى الهرمل والضنية وجبة بشري وبلاد العاقورة شرقي بلاد جبيل.

وكانت جونية من أعمال طرابلس في عصر الخطيب البغدادي، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ. والذي زار طرابلس سنة ٣٦٢ هـ.

تأسيس الدولة وازدهارها

وقد نمت إمارتهم نمواً عظيماً حتى أصبحت طرابلس، في القرن الحادي

عشر، أعظم مدينة على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وكانت أساطيلها تنتقل في أنحاء هذا البحر، فهي المنفذ البحري الرئيسي لبلاد الشام، عن طريقه يتم التصدير والاستيراد، وتنقل منتجات الشام والمشرق إلى أوروبا، وإليه تقد من الخارج لتحمل منه إلى سائر بلاد الشام. وكان بنو عمار، وهم مثقلون برد الهجمات الصليبية عليهم من البر والبحر يسيرون أسطولهم التجاري إلى ثغور البحر المتوسط^(٢). وظلت طرابلس، ومعها دمشق، تمونان أوروبا حتى أواخر العصور الوسطى بالسكر بجميع أشكاله المعروفة آنذاك^(٣) وكان التاجر الأوروبي القادم من البندقية أو جنوى يعود إلى بلاده وهو يحمل سلال السكر وأكياسه من طرابلس^(٤). وجمع بنو عمار زراعة قصب السكر الذي كان ينمو بغزارة على ضفاف نهر «أبو علي» وفي بساتين طرابلس. وأقاموا المصانع داخل المدينة لعصره وتجفيفه وتصنيعه، بشكل رقائق أو ناعم أو بشكل حلوى، وكان من حسن سياسة بني عمار وصلاح حكمهم أن أثرت المدينة وكانت على أحسن حال اقتصادي حتى خلال الحصار الصليبي لها برأ وبحراً؛ إذ ظلت صامدة تقاثلهم عشر سنين مستعينة بثروتها الداخلية وحسن إدارة اقتصادها.

وعندما أوفد القائد الصليبي ريموند، خلال الحصار، وفداً لمفاوضة فخر الملك، ومراً الوفد بأسواق طرابلس أدهشه ما رأى من تنوع البضائع ورواج التجارة وعظيم الثروة والرخاء الذي تنعم به المدينة^(٥). وقد دفع فخر الملك أثناء الحصار الصليبي إلى جميع المدافعين عن المدينة من الأجناد برأ وبحراً رواتب ستة أشهر مقدماً، كما كان أثرياء المدينة يشاركون بأموالهم في مقاومة الحصار الاقتصادي الذي فرضه الصليبيون على المدينة^(٦).

وكان فخر الملك عمار بن عمار يلقب بملك الساحل.

وإذا كنا نعلم أن الحسن بن عمار هو الذي أرسل، في عهد العزيز بالله، أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي إلى دمشق، وأن أبا تميم هذا أرسل أخاه علي بن جعفر بن فلاح والياً على طرابلس سنة ٣٨٦ هـ، إذا كنا نعلم ذلك،

فإننا لا نعلم شيئاً عن عوامل وصول بني عمار إلى طرابلس: قضية ثم حكماً، فليس في المصادر التاريخية التي في أيدينا ما يدل على بدء قيامهم فيها. فبعد وفاة جد الأسرة الحسن بن عمار سنة ٣٨٦ هـ، لا نرى أمامنا شيئاً من أخبارها، ويمتد ذلك حوالى ثلاثة أرباع القرن حتى يبرز لنا اسم أبي الكتائب عمار صاحب أبي الفتح الكراجكي^(٧)، المتوفى سنة ٤٤٩ هـ والذي ألف له الكراجكي كتاب «عدة البصير في حج يوم الغدير».

أما أول من استقل بطرابلس من بني عمار فهو أبو طالب الحسن بن عمار المشهور بأمين الدولة، وقد ظل يعد نفسه تابعاً للدولة الفاطمية حتى سنة ٤٦٢ هـ. (١٠٧٠ م)؛ حيث استقل بطرابلس فقامت بذلك إمارة بني عمار.

ومات أمين الدولة سنة ٤٦٤ هـ. (١٠٧٢ م). فتولى بعده ابن أخيه علي بن محمد بن عمار المعروف بجلال الدولة الذي استمر حكمه حتى سنة ٤٩٢ هـ. وتولى بعده أخوه عمار بن محمد بن عمار ذو السعدين المعروف بفخر الملك وبقي حتى سنة ٥٠١ هـ، حيث ذهب إلى بغداد مستنجداً بالسلاجقة على الصليبيين. وفي سنة ٥٠٢ هـ. (١١٠٩ م). احتل الصليبيون طرابلس بعد نضال طويل.

منقبة مؤسس الإمارة:

أمين الدولة الحسن بن عمار

كان أمين الدولة كبير العقل سديد الرأي، عالماً، فقيهاً، كاتباً مجيداً، ألف كثيراً من الكتب النفيسة. أما منقبته الكبرى فهي تأسيسه «دار العلم» التي جمع فيها أول الأمر أكثر من مئة ألف كتاب. وكان يبعث، في التفتيش عن الكتب، إلى جميع الأقطار ويبدل في شرائها باهظ الأثمان، ويجلب لها الكتب النادرة. واستمر الأمر بعده في عهد خلفائه، هذا فضلاً عن عنايته بالعلم وطلابه فيها وتشجيعهم على الوصول إلى طرابلس لمتابعة الدراسة.

وإلى جانب دار العلم قامت «دار الحكمة» التي قدم إليها العدد الكثير من

طلاب العلم، حتى لقد أصبحت طرابلس كعبة علم ومركزاً من أعظم المراكز العلمية في العصر الوسيط يفد إليها طلاب العلوم والفنون من فقه وحديث ولغة وأدب وفلسفة وهندسة وطب.

وعدا طلاب العلم فقد كان يفد إليها العلماء لمراجعة المؤلفات لأشهر المؤلفين في العلوم والمعارف. كما كانت تعقد حلقات علمية لكبار العلماء ينضم إليها العلماء الوافدون إلى طرابلس للاستزادة من العلم. وقد جدد «دار العلم» التي أنشأها أمين الدولة ابن أخيه وخليفته جلال الدولة سنة ٤٧٢ هـ. (١٠٨٢ م)؛ إذ كانت الظروف مؤاتية لجلال الدولة أكثر مما كانت مؤاتية لعمه وسلفه أمين الدولة.

ففي عهد الأول كانت الامارة في دور التأسيس، كما أن عمر حكمه كان قصيراً. أما جلال الدولة فقد استمر في الحكم زهاء ثمانية وعشرين عاماً اتسعت فيها أطراف الامارة وعظم شأنها ونشطت تجارتها.

طرابلس «بدار علمٍ تُسمَّى»

وقد عني جلال الدولة بدار العلم عناية فائقة، وجعل لطلاب العلم فيها رواتب، وفرّق على أهلها ذهباً، وجعل لها نظاراً يتولون القيام بذلك.

وكان شعراء الشام يفدون لمدح أمراء بني عمار ونيل جوائزهم فيلقون الترحيب والتكريم. وكثرت حلقات التدريس وازدهمت المدينة بأشهر الاعلام، من أدباء وفقهاء وشعراء ولغويين، من الذين يفدون إليها من كل مكان، وقصدها الناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومذاهبهم كما كان يفد إليها التجار والرحالة وطلبة العلم والعلماء من كل البلاد^(٨). كما ازدهرت فيها ترجمة العلوم والآداب عن اللاتينية والفارسية وغيرهما إلى اللغة العربية، ومنها إلى اللغات الأخرى، ولدينا شهادة بذلك من المستشرق «دي لاسي اوليري»، في كتابه: «علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب»، وساوت في ذلك

كبريات الحواضر العربية، فكثُر فيها المترجمون والنساخون والكتّاب والخطاطون.

ويقول «ستيفن نسيمان» في كتاب «تاريخ الحروب الصليبية»^(٩) عن المكتبة: إنها أصبحت أروع مكتبة في العالم.

وعندما سقطت طليطلة، في الأندلس، في أيدي القشتاليين، سنة ٤٧٨ هـ. (١٠٨٥ م.) يبدو أنه هاجر فريق من علمائها إلى طرابلس، وكان منهم: أحمد بن محمد أبو عبدالله الطليطلي، فاحتضنه بنو عمار وجعلوه متولياً لدار العلم. إذ كانوا يختارون للنظر في أمورها كبار رجال العلم، من أمثال: الحسين بن بشر بن علي بن بشر وأسعد بن أبي روح^(١٠) وغيرهما من أمثالهما.

وكان في المكتبة مئة وثمانون ناسخاً عملهم الوحيد نسخ الكتب غير الموجود منها نسخ في المكتبة وإضافتها إلى الكتب الموجودة فيها. ولم يقتصر الأمر على الكتب العربية، بل ضمت المكتبة الكثير من كتب اليونان والرومان والفرس، وبين الكتب العربية عدد كبير منها بخطوط مؤلفيها. ومكتبة كهذه تحتاج إلى الاتفاق الكثير عليها لما تضمه من عاملين فيها ومشرفين عليها ونساخين وخطاطين ومترجمين ومجلدين ووراقين وباعة يحملون إليها نوادر الكتب مهما غلا ثمنها.

أما عدد الكتب التي احتوتها مكتبة بني عمار فقد تعددت الأقوال في شأنه:

فابن أبي طيٍّ يقول: إن العدد كان ثلاثة ملايين كتاب، ويؤيد ذلك ابن الفرات. وعلى هذا القول كثيرون من المؤرخين العرب والمستشرقين منهم: أرنولد وغروهمان وغبين وشوشتري الذي يقول، في كتابه «مختصر تاريخ الثقافة الإسلامية»: إن مكتبة طرابلس كانت تحتوي أكبر عدد من الكتب عرف أن مكتبة ما حوته حتى ذلك الزمن، ألا وهو ثلاثة ملايين كتاب. والمستشرق الفرنسي كاترمير لم يخالجه شك في تقدير العدد بثلاثة ملايين كتاب.

ويبدو أن المكتبة بدأت، في عهد منشئها الأول، أمين الدولة بمئة ألف كتاب، وأن العدد ارتفع في عهد خليفته جلال الملك إلى المليون، ثم ارتفع في عهد فخر الملك إلى ثلاثة ملايين.

وكان في المكتبة، قاعة خاصة للنسخ والخطاطين مزودة بكل ما يحتاجونه من الأوراق والمحابر والأقلام، كما كان فيها قاعات للمطالعين الذين يقدون إليها. وهؤلاء الزافدون لم يكونوا من أبناء طرابلس فقط، فقد كان العلماء وطلاب العلم يقدون إليها من كل مكان للإفادة مما تحويه في كل فن من فنون العلم. فاكثرت طرابلس بالعلماء والأدباء والشعراء والمحدثين والفقهاء وبالطلاب الآخذين عنهم. حتى صارت مدينة طرابلس تسمى دار العلم، قد وردت هذه التسمية في عدة مصادر تاريخية. وفي ذلك يقول الشاعر شهاب الدين محمود: «وهي أيضاً بدار علم تسمى»^(١١).

واسهم عدم بعد طرابلس عن دمشق في ازدهار الثقافة في طرابلس؛ إذ كان ينتقل إليها، في كل عام، زائرون من دمشق ليشاركوها الحياة العلمية ثم يعودوا إلى بلدتهم.

وعندما حاصر «أتسز الخوارزمي» دمشق سنة ٤٦٨ هـ. واعتقل عدداً من رجالها وغلت الأسعار وضاق أمر الناس، قامت هجرة جماعية لوجوه دمشق إلى طرابلس، ومن هاجر الشاعر ابن الخياط صاحب الديوان المطبوع في دمشق، سنة ١٩٥٨.

ومن المقرر، عند جميع من كتبوا عن تاريخ الحضارة الإسلامية ووصولها إلى أوروبا، أن من عوامل هذا الوصول كان عامل الاتصالات التجارية بقوافلها المتنقلة بين الشرق والغرب. وقد كان لطرابلس بني عمار الأثر الفعال في ذلك، فإليها كانت تغد القوافل التجارية البرية من بلاد الشام، ثم ينقلها إلى مرافئ أوروبا أسطول بني عمار التجاري الذي أعدوه أحسن إعداد، ناقلاً معها جذور الحضارة الإسلامية العربية.

وليس كالعلائق التجارية بين الأمم ما يدانى في التقدم الحضاري.

وقال ناصر خسرو (القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي) عن طرابلس: «وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة».

وقد ذكر المؤرخ «السلامي»، في كتابه، أن مدينة طرابلس كانت مملوءة بالعلماء حين دهمها الصليبيون^(١٢)، وأن من يتصفح كتب التاريخ والتراجم ليقف على هذه الحقيقة، وسيجد أن طلاب العلم ورجالاته جاءوا إلى طرابلس من الأندلس وبلاد المغرب ومصر والحجاز والعراق وبلاد فارس وأنحاء بلاد الشام وآسيا الصغرى وغيرها. ونذكر هنا نماذج من أسماء الوافدين إليها، فمنهم الشاعر الشهير «أبن حثوس» وسديد الملك بن منقذ، الأمير الشاعر، وابن السراج العالم المؤلف المقرئ، وابن النقار القاضي الذي درس بطرابلس وتولى الخطابة ببجيلة ثم تولى كتابة الديوان بدمشق، وله ديوان شعر، وشاعر الشام ابن القيسراني، إلى عشرات من أمثال هؤلاء.

ومن أشهر الوافدين على طرابلس للإفادة من «دار العلم» أبو العلاء المعري. وقد شكك المؤرخ ابن العديم بذلك وتابعه آخرون. قال ابن العديم: «... وقد ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء المعري رحل إلى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها، واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد. ولم يكن بطرابلس دار علم في أيام أبي العلاء، وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك أبو الحسن علي بن أحمد بن عمار في اثنتين وأربعمئة. وكان أبو العلاء قد مات قبل جلال الملك سنة تسع وأربعين وأربعمئة»^(١٣).

على أن الدكتور مصطفى جواد قد فند هذا القول قائلاً:

ومن الحق أن في النفس ما فيها من قول ابن العديم: «وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك» فالتجديد عند أهل العربية: إعادة شيء عتيق إلى حالة حسنة مستأنفة فليس هو بتأسيس ولا بناء. ولو كان هذا العالم الكبير

متثبتاً في قوله لقال: «وإنما أنشأ دار العلم» أو «إنما أسس دار العلم» فهو محجوج مفلوج على دعواه بذكره التجديد دون التأسيس والإنشاء، وبذلك تسقط دعوى من أنكر دراسة أبي العلاء المعري بدار علم طرابلس، لأن التجديد يدل على أن دار العلم كانت منشأة قبل ذلك فأصابها تلف أو حريق استوجب تجديدها.

ثم يذكر الدكتور مصطفى جواد إنشاء أمين الدولة الحسن بن عمار، المعاصر لأبي العلاء المعري، لدار العلم، ولا يتعارض هو وقول ابن العديم من تجديد جلال الملك لها.

وممن نبغ، من الطرابلسيين، في عهد بني عمار، نذكر أمثال: ابن خرسان الأديب الشاعر المتوفى سنة ٤٩٧ هـ، وابن زريق المهندس العالم الفلكي المتوفى سنة ٥١٦ هـ، نذكرهما مثالين لنشير إلى تنوع الثقافات التي لم تنحصر في علوم اللغة وعلوم الدين.

ومن الحلقات العلمية، في عهد بني عمار في طرابلس، حلقة أبي عبدالله الطليلطي الذي مر ذكره، وكانت حلقة تخرج الأدباء والشعراء واللغويين والنحويين، ومنها تخرج الشاعر الفارس أسامة بن منقذ والشاعر ابن الخياط.

وعدا الحلقات العلمية فقد كانت هناك لقاءات شعبية تقوم أحياناً في حوانيت صغار الباعة وكبارهم، ومنها لقاءات العطار أبي المفضل ولقاءات المنتزهات والأسواق وينابيع المياه خارج طرابلس؛ حيث يتطارح الملتقون الأشعار، ونذكر مثلاً على ذلك أن أحمد بن محمد، أبا عبدالله المعروف بابن الخياط الشاعر الدمشقي، خرج مع بعض خلانه إلى ضفاف غدير في ظاهر طرابلس فقال ابن الخياط:

أوما ترى هذا الغدير كأنه	يبدو لعينك منه حلي مناطق
مترقرق لعب الشعاع بمائه	فارتج يخفق مثل قلب العاشق
فإذا نظرت إليه راعك لمعه	وعلت طرفك من سراب صادق

فقال أحد رفاقه:

قد كنت أمل أن أجيء مصلياً حتى رأيتك سابقاً للسابق

وسبب مجيء ابن الخياط إلى طرابلس يدلك على الشهرة التي كانت لبني عمار في حماية الأدب والأدباء وتشجيعهم، فقد خرج هذا الشاعر من دمشق، في الحقبة الممتدة ما بين سنة ٤٦٣ و ٤٦٩ هـ، إذ كانت دمشق تعاني خلالها فترة عصيبة من الفتن والجوع والفاقة، وهو لا يزال في صباه، فقصده حماة واتصل هناك بالأمير أبي الفوارس محمد بن مالك. ثم ذهب إلى حلب فالتقى بالشاعر ابن حيّوس فشكا له حاله وأنشده هذين البيتين يصف الحالة التي وصل إليها:

لم يبق عندي ما يباع بدرهم وكفاك مني منظر عن مخبر
إلا صباغة ماء وجه صنتها عن أن تباع وأين، أين المشتري؟

فقال ابن حيّوس: لو قلت: «وأنت نعم المشتري». لكان أحسن ثم قال: كرمتم عندي ونعيت إليّ نفسي، فإن الشام لا يخلو من شاعر مجيد، فأنت وارثي، فاقصد بني عمار بطرابلس، فإنهم يحبون هذا الفن. وبحدود سنة ٤٧٦ هـ. جاء ابن الخياط طرابلس وهو ابن ٢٦ سنة. وكان صاحب طرابلس يومها جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن عمار فاتصل به ومدحه، كما مدح فخر الملك وغيره من بني عمار. كما كان يتردد على دار العلم ويحضر الدروس فيها، وتدفع له الجرايات التي كان بنو عمار يصرفونها للطلبة في الدار.

وتقدر المدة التي عاشها في طرابلس بعشر سنوات.

وفي قصور بني عمار كانت تقام حلقات المناظرة بين الفقهاء والشعراء، وكان بنو عمار يقيمون مسابقات للشعراء يتبارى فيها هؤلاء بنظم القصائد^(١٤).

أمراء الدولة علماء مؤلفون

ومن الكتب التي صدرت، يومذاك، نذكر هذه النماذج. شرح الإيضاح، وشرح ديوان الحماسة لزيد بن علي الفارسي المتوفى سنة ٤٦٧ هـ.

وكتاب «جرب الدولة» لأبي طالب أمين الدولة الحسن ابن عمار. وقد وقع بعض المؤلفين في خطأ كبير، حين قالوا إن اسم الكتاب هو: (ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح المنعوت بجرب الدولة)، ونسبوه إلى أمين الدولة الحسن بن عمار.

وقد علق الدكتور مصطفى جواد على هذه النسبة التي أخطأ فيها «ابن الفرات»، وتابعه غيره من المؤلفين على هذا الخطأ. علق الدكتور مصطفى جواد بما نأخذه هنا لأهميته في التاريخ الفكري الثقافي لتلك الحقبة:

لقد وجدنا من الغريب قول المؤلف المصري، ناصر الدين بن الفرات، في ذكر أمين الدولة أبي طالب الحسن بن عمار: «وهو الذي صنف كتاب ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح المنعوت بجرب الدولة».

أما أولاً: فلأن كتاب «ترويح الأرواح» من كتب الفكاهة والهزل والباطل، وهذا قاضي وأمير ذو ديانة متينة.

وأما ثانياً: فلأن «جرب الدولة»، عند المطلعين على التاريخ الإسلامي، جاء في حالتين: أولاً كونه لقباً للإنسان الذي ألف «ترويح الأرواح» والآخر كونه اسماً لكتاب ألفه ابن عمار المذكور في اقتصاديات الدولة الإسلامية وشؤونها الأخرى. وقد أخذ ابن الفرات المصري اسم الكتاب الهزلي ولقب مؤلفه فجعلهما اسماً لكتاب ابن عمار، وهذا من أشنع الغلط وأفظعه، وجل من لا يسهو ولا يغلط.

قال ياقوت الحموي في ترجمة الهازل الملقب «جرب الدولة»:

«أحمد بن محمد جرب الدولة: هو أحمد بن محمد بن علوية من أهل سجستان ويكنى أبا العباس، وكان طنبورياً، أحد الظرفاء والطياب. كان في أيام

المقتدر وأدرك دولة بني بويه فلذلك سُمي نفسه بجراب الدولة، لأنهم كانوا يفتخرون بالتسمية في الدولة وكان يلقب بالريح^(١٥) وله أيضاً كتاب «ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح» لم يصنف في فنه مثله اشتمالاً على فنون الهزل والمضحك».

أما «جراب الدولة» الذي ألفه أبو طالب الحسن بن عمار فهو من أجل الكتب وأجزلها فوائد وأشرفها موضعاً، قال القاضي ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون في فصل: «إن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها». «وكذلك وجد بخط أحمد محمد بن عبد الحميد عمل بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي، نقلته من جراب الدولة: غلات السواد... كسكر... كورد جلة... حلوان... الأهواز... فارس». وذكر الارتفاع أي الواردات لمملكة المأمون بأسرها.

فأين موضوع هذا الكتاب من موضوع الكتاب الباطل العاطل؟ (انتهى).

وهكذا نرى أمراء بني عمار كانوا في الوقت نفسه علماء مؤلفين يؤلفون في ما يسمى اليوم بالاقتصاد السياسي. ومن المؤلفات التي صدرت في ظل حكم بني عمار مؤلفات أسعد بن أحمد بن أبي روح التي مر ذكر بعضها.

وديوان ابن خرسان المتوفى سنة ٤٩٧ هـ، وديوان أحمد بن منير المتوفى سنة ٥٤٨ هـ، وروضة النفس لابن البراج المتوفى سنة ٤٨١ هـ، وديوان لابن النقار المتوفى سنة ٥٦٧ هـ، وديوان لابن هبة الله العلوي الحسيني المتوفى بعد سنة ٥١٥ هـ، والتصريح في شرح قصيدة كثير وابن ذريح للراشدي بن بركات المتوفى سنة ٥٤٠ هـ، وغير ذلك.

حركة شعريّة ناشطة

وكان بنو عمار من المقصودين بالمدح من شعراء عصرهم، فمن الشعراء الذين مدحهم: ابن الخياط، وابن النقار، وأبو المواهب المعري، وابن العلاني المعري، وأبو الفتيان بن حيوس.

فمن مدائح أبي المواهب المعري قوله، في ذي السعدين، فخر الملك عمار بن محمد بن عمار من قصيدة جاء فيها:

أحبابنا جرتم مع البين فاعدلوا	وجزتم مدى هجرانكم فترفقوا
ورب فلاة جبتها، وهو مؤنسي ^(١٦)	وخيفانة تجري مراراً وتعنق
وظلت أخطيها البلاد ودونها	طرابلس حيث الأمانى وجلق
ورجحت ما بين الملوك فما بي	رجاء بذى السعد بن أوفى وأوفق
ملك به الآمال ألقت عصا النوى	فقرت وفي أوصافه المدح يصدق
وعرض لي غيث على الشيم مرعد	من الشام نجاح السحاب مغدق
هو البحر إلا أنه غير مالح	هو البدر إلا أنه ليس بمحق
حمى الثغر من رشف المواضي فقد	كفى تأشب ما يحميه سور وخندق
لكم آل عمار على الجود مسحة	سحاب الندى فيها من التبر مغدق
وفيك أطاعتني القوافي كأنها	لمدحك تهوى أو لنظمي تعشق
وقد كسدت هذي البضاعة برهة	ولم تك إلا في زمانك تنفق

ويقول فيه من قصيدة أخرى:

عزت طرابلس فيا لك بلدة	طالت بمالكها على البلدان
موج بظاھرھا وموج باطن	سبحان محرزها من الطوفان
يفديك قوم ضاع شعري فيهم	وغدوت جارهم فضاع زمانى
أنست طرابلس بما أوليت	للمملوك طيب معرة النعمان

وفي أحد المجالس الشعرية التي كان يلتقي فيها الشعراء بفخر الملك اقترح عليهم أن يعارضوا قصيدة محمد بن هانىء الأندلسي الرائية الشهيرة التي مطلعها:

فتقت لكم ريح الجلال بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

بأن ينظم كل واحد منهم قصيدة على وزنها وقافيتها، فسبقهم في ذلك أبو الحسن علي بن ابراهيم، المعروف بابن العلاني، بقصيدة أعجبت فخر الملك

فأجازه عليها واستغنى بها عن قصائد بقية الشعراء.

وكان فخر الملك يقود، يومذاك، الكفاح الإسلامي على الصليبيين، ويتحمل حصارهم لمدينته ويدافعهم عن وطنه، وإلى ذلك يشير الشاعر في بعض أبيات القصيدة، كما أشار أبو المواهب المعري في قصيدته المتقدمة بقوله:

حمى الثغر من رشف المواضي فقد كفى تاشب ما يحميه سور وخذق

قال ابن العلاني في بعض ما قال:

يا ناصر الدين الذي لو لم تطل	منه مقارعة العدى لم ينصر
والمجد صعب المرتقى إلى أعلى	يقظان في ذات الإله مشمر
إن العلى ما بين كفبرة	منه ووجه بالطلاقة مسفر
أيظن جند الشرك عزمك مغفلاً	حز الطلى منهم وقطع الأبهـر
فلتنسفهم سطاك بعاصف	يجتث أصل المشركين بصرصر
وليجلبن ذوي القسي أعدها	للشرك كل مباسل متنمر
تقضي فروض الصوم أكرم ضائم	وأهل عيد الفطر أكرم مفطر
لا تعدم الأعياد إن البستها	ببقائك الممدود أحسن منظر

وقال الشاعر ابن الخياط يمدح علي بن محمد بن عمار، أبو الحسن جلال الملك، من قصيدة:

أحب مكارم الأخلاق منه	وأعشق دولة الملك الجواد
رجوت فما تجاوزه رجائي	وكان الماء غاية كل صاد
صبحنا عنده الأيام بيضاً	وقد عم الزمان من السواد
وأدركنا بعدل من علي	صلاح العيش في دهر الفساد
أبوك تدارك الإسلام لما	وهى أو كاد يؤذن بانهداد
سَخا بالنفس شماً بالمعالي	وجاهد بالطريف وبالتلاد

كيومك إذ دم الاعلاج بحر
رعى منك الرعية خير راع
وعندما ترك ابن الخياط طرابلس إلى دمشق كتب إليه، منها قصيدة، في مدحه، قال فيها:

لئن عداني دهر عن لقائكم
ما وجد من فارق القوم الألى ظعنوا
أعديتم يا بني عمار كل يد
ما كان يعرف كيف العدل قبلكم
محامد ليس يبلي الدهر جدتها
وبلدة قد حماها منك رب وغي
إن اقلق الخطب كانت معقلاً حراماً
وقال من قصيدة في مدحه:

نرجي الحيا من راحة ابن محمد
وقى الله فيك الدين والبأس والندى
خشوع وإيمان وعدل ورافقة
ويغنيك عن حفر الخنادق مثلها
وقفت القوافي في ذراك فلم يكن
معطلة إلا لديك حياضها
وقال، من قصيدة في عمار بن محمد بن عمار، فخر الملك:

إلى ربع عمار بن عمار الذي
فتى لم نمل يوماً بركن سماحه
وقال فيه من قصيدة:

إذا آل عمار أظلك عزهم
هم القوم إلا أن بين بيوتهم
إذا رمت شعري في علاك أطاعني
هذه نماذج من الشعر الذي مدح به أمراء بني عمار ورجال دولتهم،

هؤلاء الأمراء الذين كانوا في معظمهم أدباء أو علماء، وكانوا في جمهورهم ذواقين للشعر، مستعذبين مجالسه مكرمين رجاله، وكانوا، في صفات من الخير والعدل وجهاد العدو والفروسية والكرم، ما يبعث الشعر أصيلاً صادقاً على لسان الشعراء.

ولرواج سوق الشعر، يومذاك، أولع متداولوه باستكتاب الخطاطين للقصائد بخطوطهم الجميلة، فيدفع أحدهم للخطاط أكثر من سبعة دنانير لكتابة القصيدة الواحدة. ولقد قبض الشاعر أحمد بن حمزة، المعروف بابن الخيشي الحلبي، نحو مئتي دينار في شهر رمضان لكتابته سبعاً وعشرين قصيدة لجماعة من الطرابلسيين^(١٧).

بنو عمار من الكتاب إلى السيف

عندما وصل القائد الصليبي «صنجيل» (ريموند دي سان جيل) إلى مشارف الشام كان أول من أدرك الخطر الصليبي فخر الملك بن عمار، فصمم على الإعداد لهذا الخطر قبل أن يتغلغل في البلاد الشامية، وذلك بالدعوة إلى حلف إسلامي يقف في وجهه، فراسل الأمير «ياخز» في حمص والملك «دقاق» بن تتش» في دمشق يقول لهما على ما يروي ابن الأثير^(١٨): من الصواب أن يعاجل صنجيل إذ هو في هذه العدة القريبة.

فاستجابا له، فخرج الأمير «ياخز» بنفسه وسيّر «دقاق» ألفي مقاتل، وخرجت الإمدادات الطرابلسية فاجتمعوا على باب طرابلس وصافؤا «صنجيل» هناك.

يقول ابن الأثير: فأما عسكر حمص فإنهم انكسروا عند المشاهدة ولوا منهزمين، وتبعهم عسكر دمشق، وحمل «صنجيل» بمن معه فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل، ونازل «صنجيل» طرابلس وحصرها. إلى هنا، والأمر طبيعي، فالحروب سجال: ينتصر هذا الفريق وينهزم ذاك

الفريق... ولكن غير الطبيعي والذي يجعلنا نكثر من التساؤل والاستغراب هو المقدمة الذي قدم بها ابن الأثير لهذه الحرب وهزائمها، فهو يقول عن أحداث سنة ٤٩٥ هـ، بعد أن يتحدث عن هزيمة «صنجيل» أمام «قلج أرسلان»: ومضى «صنجيل» مهزوماً في ثلاث مئة فوصل إلى الشام فأرسل فخر الملك بن عمار إلى الأمير ياخز وإلى الملك دقاق... إلى آخر القول الذي تقدم... ثم يقول: فاخرج «صنجيل» مئة من عسكره إلى أهل طرابلس ومئة إلى عسكر دمشق وخمسين إلى عسكر حمص، وبقي هو في خمسين. فأما عسكر حمص فإنهم انكسروا عند المشاهدة ولوا منهزمين وتبعهم عسكر دمشق.

وأما أهل طرابلس فإنهم قاتلوا المئة الذين قاتلوهم، فلما شاهد ذلك «صنجيل» حمل في المئتين الباقيتين، فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل، ونازل «صنجيل» طرابلس وحصرها.

يستطيع الإنسان أن يقول: إن في كلام ابن الأثير هذا تخليطاً لا نعرف عوامله!...

والذي يهنا الآن هو أن حصار الصليبيين لطرابلس براً وبحراً قد بدأ وأنه سيستمر عشر سنوات أصبح خلالها شعار بني عمار: السيف، بعد أن كان شعارهم الكتاب، وإن ظل للكتاب عندهم مكانه الرفيع ومنزلته الكبرى.

يقول المؤرخون^(١٩): اجتمع على منازلة طرابلس كل من «برتران» الابن الأكبر لريموند الصنجيلي، ودوليم غوردان، ابن أخت ريموند المذكور، و«تانكريد» أمير أنطاكية واللاذقية و«بلدوين» ملك بيت المقدس، و«بلدوين» كونت الرها و«غوسلين» أمير قلعة تل باشر.

وكانت القوى المهاجمة للمدينة تتألف من ٤٠٠٠ فارس بروفنسي قدموا مع برتران، وعدد كبير من الجنوية جاءوا بعشرين سفينة، إلى جانب سفن برتران وعددها أربعون، و٥٠٠ فارس أتى بهم بلدوين ملك القدس إلى جانب عدد كبير من الرجال و٧٠٠ فارس من خيرة فرسان تانكريد، بالإضافة إلى

بلدوين كونت الرها، وجوسلين وحرسيهما، ثم جموع المردة ومن أتى من جبل لبنان.

كان هذا الجمع قد تجمع على طرابلس بعد أن كُت قواها بعد عشر سنوات من الحصار المضروب والقتال الدائم، وكان هو الذي دخل طرابلس.

يقول ابن الأثير، في أحداث سنة ٥٩٦ هـ. وكان صنجيل يحاصر مدينة طرابلس الشام، والمواد تأتيها، وبها فخر الملك بن عمار، وكان يرسل أصحابه في المراكب يغيرون على البلاد التي بيد الفرنج ويقتلون من وجدوا. ويقصد بذلك أن يخلو السواد ممن يزرع لتقل المواد من الفرنج فيرحلوا عنه.

سنة كاملة مرت على الحصار كاثت مهمة فخر الملك فيها مزدوجة ذات شقين: شق دفاعي وشق هجومي، فهو يقف في وجه اقتحام الصليبيين لمدينته فيقاتلهم دفاعاً عنها، ثم هو ينفذ بمراكبه من بين سفن الصليبيين المحاصرة له، فيهاجم الصليبيين في ما يحتلونه من بقاع.

كان فخر الملك هنا بطل الدفاع والهجوم معاً، وكان «العماريون» أهله يشدون من أزره، وشعبه الطرابلسي بصبر ويصابر معه. وتأتي سنة ٥٩٧ هـ. فيقول ابن الأثير: في هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة اللاذقية فيها التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك، واستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس، فحاصروها معه براً وبحراً وضايقوها وقتلوها أياماً، فلم يروا فيها مطمئناً فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل...

سنتان مرتا وفخر الملك محصور في مدينته، وهو صامد يدافع عنها دفاع الأبطال، ويستعين الأعداء بقوى جديدة فلا ينالون من صموده مثلاً...

وفي سنة ٤٩٩ هـ. يقول ابن الأثير: كان صنجيل قد ملك مدينة جبلة، وأقام على طرابلس يحصرها فحيث لم يقدر أن يملكها، بنى بالقرب منها حصناً وبنى تحته ربضاً، وأقام مُراسداً لها ومنتظراً وجود فرصة فيها، فخرج فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس، فأحرق ربضه ووقف صنجيل على

بعض سقوفه المحترقة ومعه جماعة من القمامصة والفرسان فانخسف بهم،
فمرض صنجيل من ذلك عشرة أيام ومات، وحمل إلى القدس فدفن فيها.

ثم إن ملك الروم أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الفرنج
الذين على طرابلس فحملوها في البحر، فأخرج إليها فخر الملك بن عمار
أسطولاً فجرى بينهم وبين الروم قتال شديد فظفر المسلمون بقطعة من الروم
فأخذوها وأسروا من كان بها وعادوا.
ويتابع ابن الأثير كلامه:

ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين إلى هذا الوقت،
فعدمت الأقوات به وخاف أهله على نفوسهم وأولادهم وحُزَمهم فجلا الفقراء
وافتقر الأغنياء، وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأي سديد. (انتهى)
هذا الكلام الذي تأخذه بنصه عن ابن الأثير يغني عن كل تعليق^(٢٠).
ويواصل ابن الأثير قائلاً:

وأجرى ابن عمار الجرايات على الجند والضعفى، فلما قُلت الأموال عنده
شرع يقسُط على الناس ما يخرجهم في باب الجهاد، فأخذ من رجلين من الأغنياء
مالاً مع غيرهما، فخرج الرجلان إلى الفرنج وقالوا: إن صاحبنا صادرنا فخرجنا
إليكم لنكون معكم، وذكرنا لهم أنه تأتيه الميرة من «عرق» والجبل. فجعل
الفرنج جمعاً على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء إلى البلد.

فأرسل ابن عمار وبذل للفرنج مالاً كثيراً ليسلموا الرجلين إليه فلم
يفعلوا. فوضع عليهما من قتلتهما غيلة. لم يكن ابن عماراً بطلاً شجاعاً فقط، بل
كان إلى ذلك حازماً بعيد النظر محكم التدبير جلدأ أمام الأهوال.. في كل شعوب
الأرض يوجد ضعاف النفوس خواری العزائم، ويوجد حريصون على المال لا
يبالون في هذا الحرص أن يخونوا أوطانهم.

فلا يضير الشعب الطرابلسي أن يوجد في صفوفه مثل هذين الخائنين
الذين لا تشك في أنهما جمعاً مالهما من الحرام ومن كل مصدر غير شريف، لأن
من يقدم على ما أقدم عليه يكون قد أقدم على كل رذيلة في جمع المال!.

كان ابن عمار - كما قلنا - حازماً بعيد النظر محكم التدبير جلدأً أمام الأهوال، فلم يشغله ما هو فيه عن التفكير في أمر هذين الخائنين. إن تركهما سليمين يشجع أمثالهما على الخيانة فأحكم تدبير أمر اغتيالهما، واستطاع اختراق صفوف أعدائه والوصول إلى اغتيالهما، وفي هذا ما فيه من قوة العزم وسداد الرأي وإحكام الأمر..

ابن عمار والسلاجقة

وفي أحداث سنة ٥٠١ هـ. يقول ابن الأثير: ورد فخر الملك أبو علي بن عمار إلى بغداد قاصداً باب السلطان محمد (السلجوقي)، مستنقراً على الفرنج طالباً تسيير العساكر لإزاحتهم، والذي حثه على ذلك أنه لما طال حصر الفرنج لمدينة طرابلس ضاقت عليه الاقوات وقلّت واشتد الأمر عليه وعلى أهل البلد.

ويتابع القول: فلما بلغ فخر الملك انتظام الأمور للسلطان محمد وزوال كل مخالف رأى لنفسه وللمسلمين قصده والانتصار به اهـ (٢٠).

لقد استقبل فخر الملك في بغداد من السلطان ومن الخليفة بحفاوة بالغة، فطالب بالنجدة وتعهّد أنه إذا أجيب استنجاهه وأرسلت معه العساكر يوصل إليهم جميع ما يلتمسونه. قال ذلك للخليفة وللسلطان، فلم ينل غير الوعود، فعاد إلى دمشق خائباً!..

وقد حدثت في غيابه مؤامرات عليه ساهم فيها نائبه، ما أخرج الأمر من يده وحيل بينه وبين العودة إلى طرابلس. وفي سنة ٥٠٣ هـ. كان الصليبيون يدخلون طرابلس. ويوجز ابن الأثير ذلك بهذه الجملة:

ومد الفرنج القتال عليها من الأبراج والزحف، فهجموا على البلد وملكوه عنوة وقهراً ونهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يعد ولا يحصى، فإن أهلها كانوا من أكثر بلاد الله أموالاً وتجارة. وعاقب الفرنج

أهلها بأنواع العقوبات وأخذت دفائنهم وذخائرهم في مكانهم.
وكانت المكتبة الكبرى من ضحاياهم إذ أحرقوها بكل ما فيها.

بنو عمار والعماران

لم يغفل بنو عمار النواحي العمرانية في إمارتهم، فمن أهم ما عنوا به المشاريع المائية، فأمنوا لطرابلس رياً منظماً من النهر الذي عرف بعد ذلك باسم نهر «أبو علي»، ولا يزال حتى اليوم يعرف بهذا الاسم، فقد كان نهر قاديشا يفيض فيحدث أضراراً ولا ينتفع منه، فوضع فخر الملك أبو علي ابن عمار خطة إنمائية تنظم أمور النهر وتمنع فيضانه، وتجريه في أقنية للري، فعاد على المدينة ومنطقتها بالخير العميم، ونمت المزروعات والبساتين والحدائق، وتشكل من ذلك ثروة زراعية ساعدت على رقي المجتمع، وازدهرت الحقول والأرضين المحيطة بالمدينة بوفرة مزروعاتها وتنوعها وفازت عن حاجاتها فاحتفظت بأموالها واستندرت أموالاً من الخارج ما كان عاملاً في نهوض الحركة الصناعية والاقتصادية والثقافية.

وعرفت طرابلس، في كتب المؤرخين والرحالين، بكثرة ما تنتجه من الفواكه والثمار، حتى لقد قالوا: «إن فيها ما لا يوجد في سائر الأقاليم أصلاً، إذ لا يكاد يوجد دار بغير شجر لكثرة تخرق أرضها بالمياه، فهي تجمع بين ثمار الشام ومصر».

والفرنج عرفوا قصب السكر، لأول مرة، في بساتين طرابلس، فنقلوا غروسه إلى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا.

ومن إنجازات بني عمار إنشاء مصانع للورق، فقد كان الورق السمرقندي هو المشهور في العالم الإسلامي بجودته، فإذا بالورق الطرابلسي يفوقه جودة.

وقد كان لوجود مصانع الورق أثر كبير في رواج العلم والتدوين

والتأليف في طرابلس وساعد على نهضتها الثقافية العلمية الأدبية، فكثرت الوراقون، ونشأت للتجليد صناعة فنية على الطريقة الصينية من زخرفة وتوشيح بالخطوط الملونة. ومن الصناعات التي نهضت في طرابلس صناعة الحرير التي امتدت مصانعها على ضفاف النهر، بما فيها من ألوف الأنوال والمغازل ما أدهش الفرنج وأثار عجبهم.

وقد عني بنو عمار بالملاحة البحرية فانشأوا أساطيل تجارية كانت تجوب البحر حاملة من طرابلس أو ناقلة إليها حاجات الناس هنا وهناك ما أشرنا إلى بعضه فيما تقدم من القول، هذا عدا عن أسطولهم الحربي الذي تولى قتال أساطيل الصليبيين طوال عشر سنوات.

ومن طرابلس عرف الأوروبيون «البوصلة» وكيفية استعمالها، عرفوا ذلك من البحارة الطرابلسيين.

وقد امتدت آثار بني عمار إلى خارج أمارتهم، فهم الذين بنوا الجهة الشرقية من الجامع الكبير في مدينة حلب، كما يثبت ذلك المؤرخ ابن الشحنة الحلبي في كتابه «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب»^(٢١). كما كانوا يبعثون القضاة والخطباء إلى المدن الشامية، ومن ذلك ما ذكره «ابن تغري بردي» في كتابه «النجوم الزاهرة» عن ابن تلمش أنه عندما فتح حصن انطربوس من الروم سنة ٤٧٥ هـ، بعث إلى صاحب طرابلس جلال الملك يطلب منه قاضياً وخطيباً ليقم بها^(٢٢).

الهمز

(١) يقول المؤرخ المغربي، الدكتور موسى لقبال في ما يقول عن قبيلة كتامة: يحمل تاريخ قبيلة كتامة وعلاقتهم بالحركة الفاطمية، منذ القرن الثالث للهجرة، عدة معان ودلالات منها: إن عملهم يعبر عن فترة حاسمة في نهضة الفروسية الإسلامية في بلاد المغرب، وهو يمثل أيضاً دوراً إيجابياً للإسلام الشيعي..

... وبفضل عمل كتامة سرى تيار الوحدة، وأصبحت أصدائه هي المسموعة في أرجاء المغرب والمشرق أيضاً... وأهلهم المؤرخون وغطوا محاسنهم تأثيراً بالسياسة وبالمذهبية...

ومحبة آل البيت وتأييدهم ودعم قضية الشيعة الفاطميين كانت بارزة في مجموعهم وارتبطت بالعصية القومية وبالشرف...

ويبدو أن السبب في اختفاء بقايا كتامة في تونس هو السبب في اختفاء اسمها الأصلي القديم من بيئتها الأولى، أي يرتبط بحرص رجال المالكية على طمس كل ما يتصل بهذه القبيلة المبتدعة في نظرهم!..

وكانت مصر بالنسبة لقادة كتامة مركز الجذب ونقطة الارتكاز لكل من أراد الظهور والمجد في ميادين السياسة والجندية...

وفي مجال البحث عن بذور حركة التشيع، وعن كيفية تسرب الدعوة الفاطمية إلى بلاد المغرب نشير إلى ما تمتعت به شخصية علي بن أبي طالب عند جميع المسلمين في المغرب من محبة وتقدير، كمجتهد في الرأي وكولي من أولياء الله وفارس مظفر حتى إن جهوده أثناء حركة نشر الإسلام ضد قریش وضد اليهود في خيبر وغيرها من واحات شبه الجزيرة، يتغنى بها عامة المسلمين في هذه البلاد.

جاء حادث قتله غيلة وظلماً ليرفعه إلى مقام رفيع وهو مقام الشهداء. وجمهور العامة في هذا الوقت، يروون عن «سيد علي، أو علالة كثيراً من الخوارق، كما يخلعون عليه لقب «حيدر» وهو من القاب علي، وهذا اللقب شائع في بلاد المغرب. ويسمون فرسه باسم السرحان الذي يعتقدون أنه لا يغلب، وأن مصدر نبات النرجس من لعابه. وصورته وحده أو مع ابنه الحسن والحسين، ثم وهو راكب على جواده تنتشر في الأسواق، ويتبرك الناس بتعليقها على جدران البيوت.

ويعتقد كثير من الناس أن علامة الخمسة، وهي صورة الكف التي ترمز في ما يبدو إلى آل البيت، أو أصحاب الكساء مفيدة في الوقاية من شر العين والحسد.

وجل قصائد القصائد الشعبية في الأسواق تدور حول بطولات علي بن أبي طالب الذي غدا الصورة النموذجية لكل الفرسان والأبطال.

ويشير ابن أبي الضياف إلى مدى ما يكنه مسلمو المغرب جميعاً من محبة لعلي وآله جبلة في طباعهم في قوله: «وأهل أفريقيا (المقصود بأفريقيا هنا: تونس بالذات) يدينون بحب علي وآله، ويستوي في ذلك عالمهم وجاهلهم جبلة في طباعهم». وبعد أن يؤيد ذلك بأن النساء الحوامل في أفريقيا والمغرب ينادين عند الوضع: يا محمد، يا علي، لتسهيل الولادة، وبأن أبا الحسن الشاذلي الإمام المتصوف وصاحب الطريقة الشاذلية كان يوصي أصحابه ومريديه بقوله: «إذا اشتد عليكم كرب فقولوا: يا محمد يا علي».

ويرى الدكتور لقبال، بعد هذا القول، أن هذا ليس ناشئاً من تأثير قيام الدولة الفاطمية في تلك البلاد فقط، بل لا يستبعد أن يكون لمذهب مالك بن أنس الذي يأخذ به كافة مسلمي المغرب، عدا الخوارج، أثر في ذلك بسبب صلة مالك بجعفر الصادق (ع) الذي أخذ عنه وتأثر به.

(٢) الحياة الثقافية في طرابلس، ص ١٥.

(٣) فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ط ١٩٥٩، ص ٤١٤.

- (٤) سيفريو هونكه، فضل العرب على أوروبا، القاهرة، ص ٢٨.
- (٥) حسن حبشي، الحروب الصليبية، القاهرة، ص ٦٥.
- (٦) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٤٥٢.
- (٧) من تلاميذ الشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي. كان نزيل الرملة (فلسطين) وأخذ عن بعض المشايخ في حلب والقاهرة ومكة وبغداد وغيرها من البلدان، وتوفي في صور (لبنان) سنة ٤٤٩ هـ. له مؤلفات كثيرة بلغت السبعين. منها: كنز الفوائد، والاستطراف في ذكر ما ورد من الفقه في الانصاف، والاستنصار في النص على الأئمة الأطهار، والاعلام بحقيقة إيمان أمير المؤمنين وأولاده الكرام، والبيان عن جمل اعتقاد أهل الإيمان، وتهذيب المسترشدين، وشرح جمل العلم للمرتضى، ومعارضته الاضداد باتفاق الاعداد، ومعدن الجواهر ورياضة الخواطر.
- والكراچكي: بفتح الكاف نسبة إلى الكراچك عمل الخيم، ولهذا وصفه بعضهم بالخيمي. وضبطه بعضهم بضم الجيم نسبة إلى الكراچك: قرية على باب واسط ذكرها ياقوت في معجم البلدان. ويقول في «أعيان الشيعة»: إن هذا ليس بصحيح. وكان الكراچكي نحوياً لغوياً فلكياً متكماً فقيهاً محدثاً، وكان إلى ذلك طبيباً.
- ويقول السيد بحر العلوم في رجاله عن كتابه كنز الفوائد: يدل على فضله وبلوغه الغاية القصوى في التحقيق والتدقيق والاطلاع على المذاهب والأخبار، مع حسن الطريقة وعدوبة الالفاظ.
- (٨) الحياة الثقافية في طرابلس، الشام، ص ١٤.
- (٩) ترجمة د. العريني، ج ٢، ص ١١٣، بيروت ١٩٣٩.
- (١٠) كان ابن بشر خطيباً، وقد جرت بينه وبين الخطيب البغدادي، صاحب «تاريخ بغداد» مناظرة في الخطابة، وقد ذكر هذه المناظرة الكراچكي في رحلته، وقال إنه حكم لابن بشر على الخطيب البغدادي بالتقدم بالعلم. وأما أسعد بن روح فقد كان قاضياً لطرابلس في عهد جلال الملك، وكان متعبداً زاهداً، وقد أخذ القضاء عن عبد العزيز بن البراج المتوفى سنة ٤٨١ هـ. ويقول ابن أبي طي: أسعد بن أحمد بن أبي روح عقدت له حلقة الاقراء وأنفرد بالشام وطرابلس وفلسطين بعد ابن البراج.
- وقيل إنه كانت له دار كتب خاصة جمع فيها أزيد من أربعة آلاف مجلدة وأنه اتخذها في حيفا عند تحوله إليها، وقيل إنه قتل فيها عندما احتلها الصليبيون، وقيل أنه قتل في صيدا، وقيل إنه انتقل إلى دمشق ومات بها قبل سنة ٥٢٠ هـ، وله عدة مؤلفات منها: عيون الأدلة في معرفة الله، وكتاب التبصرة في معرفة المذهبين الشافعية والإمامية، وكتاب المقتبس في الخلاف مع مالك بن أنس، وكتاب النور في عبادة الأيام والشهور، وكتاب البيان عن حقيقة الإنسان، وكتاب الفرائض، وكتاب البراهين وغير ذلك.
- (١١) يقول مؤرخ عن مكتبة بني عمار ما يلي:
- نحنى همامتنا أمام القضاة الأمراء من بني عمار الذين أنصفوا - بحسب شهادة مؤرخ الحروب

الصليبية ستيفن رنسيما - بأنهم كانوا يتمتعون بروح علمية مثل تمتعهم بالصفات الحربية، بل أكثر.

ولنا أن نطيل الصمت بخشوع وأن نحبس أنفاسنا ونحن نجول بين قاعات المكتبة وردهاتها التي حوت أكبر عدد من الكتب عرف أن مكتبة ما حوته في الدنيا حتى ذلك الوقت، إلا وهو ثلاثة ملايين كتاب بحسب عبارة شوستري، ويؤيده فيها كبار المؤرخين والمستشرقين: ادوار جيبون، وأرنولد، وغروهمان، وكاترمير، وبروتز، وديرنبورغ. ناهيك بالمؤرخين والباحثين العرب مثل جرجي زيدان وغيره من ثقاة المؤرخين الذين لم يخالفهم أدنى شك في تقدير ذلك العدد الذي نص عليه النويري ونقله ابن الفرات في تاريخه. ولا غرو فمكتبة مؤسس إمارة بني عمار القاضي أمين الدولة بن عمار كانت النواة الأولى وهي تضم مئة ألف كتاب. وقد كانت مكتبات أوروبا تقيّد القليل من الكتب الذي قد لا يتجاوز العشرة من السلاسل لندرته وخوفاً عليها من السرقة. وفي القرن الثاني عشر كانت مكتبة - كلوبي - تعتبر أكبر مكتبة في أوروبا ولا تحتوي سوى خمسمئة وسبعين كتاباً.

(١٢) الحياة الثقافية في طرابلس، ص ٢٦، عن مختصر التواريخ لشهاب الدين أحمد السلامي، ص ٢٧٧، نسخة مخطوطة بدار الكتب في القاهرة رقم ٩٠٥١ رمز.

(١٣) الانصاف والتحري، ص ٥٠.

(١٤) الحياة الثقافية في طرابلس، ص ٣١ - ٣٦.

(١٥) لعله يكنى بأبي الريح لأن الجراب أبو الريح، «معجم الأدباء ج ٢».

(١٦) يقصد سيفه.

(١٧) الحياة الثقافية، ص ٢٥.

(١٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٣٤٤.

(١٩) تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١١١.

(٢٠) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٤٤.

(٢١) ابن الشحنة الحلبي، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٩، ص ٦٣.

(٢٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، القاهرة، دار الكتب المصرية، ج ٥، ص ١١٥.

